يدي قوم هم أحوج إلى وسقها[89] من أيّ قوم؟ ما لقيصر الروم لم يرسل راعياً لسفينته هذه، من بين أُلوف الأُلوف من تابعيه، رجلاً غير باقوم؟ كلّ هذه الظواهر، وأمثالها كثيرات، راحت تتوالى هنا وهناك حلقات. قريباً وبعيداً تتابعت، على الأيام، ومع الأعوام. ما من ظاهرة واحدة منها، حين بدأت وانعقدت علها النيّة، إلاّ كانت تُنبئ عن غرض معلوم، وتنطلق في مسار محدود بحدود. لكنّ الأغراض لا تلبث أن تختلف وتتغيّر، والمسارات تتبدّل مسارات، كأنّما قد غمّ على كلّ ظاهرة منها الطريق الذي كان ينبغي أن تمضي فيه. وعلى مشيئاتها جميعاً تغلب مشيئة القدر، بيد قادرة مجهولة تسير، ثم تتجمّع مصائرها الغيبية في نهاية المطاف، كأنّها حزمة من حطب يشدّها رباط وثيق، ثم تتآلف، تآلف بُرادة الحديد[90] حول قطب مغنطيس، ثم تتجلّى للناس، أخيراً، حكمة علوية من عليٍّ حكيم. أقلام الغيب كانت ترسم السطور. حتّى الخلاف الذي انشطر بقريش، وكاد يلقي بها وقوداً لعداوة سعّر نارها التفاخر والصلف[91] والغرور، إنّما كان وسيلةً لظهور بشير النور.